أفق ٧ . ٧

أفق مفتوح

من عملية الباص إلى عملية الجرافة !

ناهض منير الريس

لا أهمية للأسماء .. لا أهمية للأماكن .. لا أهمية للأوقات .. لا أهمية لموازين القوى .. لا أهمية لأنواع السلاح ..

فالشيء الذي له علاقة بتصميم إنسان فلسطيني على الانتقام نيابة عن شعبه هو الظلم الفاحش الذي لحق بكل جزئية من جزئيات قضية هذا الشعب والواقع المرير الذي يرزح تحته منذ النكبة حتى اليوم والإذلال المهين الذي يمارس على المجموع الفلسطيني .

ولذلك فإن اجتهادات المستوى المخطط والمفكر من رجال المخابرات الإسرائيلية عندما يجلسون لتحليل الأسباب التي تحمل الفلسطيني على تنفيذ عملية استشهادية إنما هي اجتهادات استخباراتية تحترف تضليل نفسها حين تلتمس الجواب في عنصر خارجي وشيء يرجع إلى عيب الفلسطيني أو إلى شذوذه أو إلى أقربائه أو إلى أهل قريته وعموما إلى بيئته .. الخ .. الخ .. ولكي لا يفوتهم (استثمار) المسألة سياسيا ودعائيا فإن الإعلام الإسرائيلي لا بد أن ينحي باللائمة على السلطة الفلسطينية التي (لا تفعل شيئا لمكافحة الإرهاب) .. أو على سوريا التي (لا تطرد الإرهابيين من ديارها) أو على إيران (التي ترعى الإرهاب) . ولطالما استخدم الإسرائيليون هذه الأضاليل ووزعوها عبر العالم فملأوا بها الأسماع وصدعوا بها الرؤوس أينما وصلت امبراطورية أجهزتهم الإعلامية التي تنشر الأكاذيب حول العالم . أما النتائج والتوصيات فهي غالبا : إضافة جديد إلى ترتيباتهم الأمنية وإلى ترسانة معداتهم وأجهزتهم .

الإسرائيليون لا يرون أنفسهم جيدا ، ولا يفهمون أنهم أحدثوا سلسلة من الجنايات التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية إلا قليلا . لقد التمسوا لأنفسهم الأعذار ، وتعاموا عن رؤية الضحايا . وعندما يقرأ المرء كتب سيرة القادة والزعماء المؤسسين الذين أقاموا إسرائيل على أنقاض الفلسطينيين ، يأخذه العجب من إغفالهم ذكر الشعب العربي الفلسطيني الذي جاؤوا متطفلين على بلاده .. فإن لم يكن على بلاده من زاويتهم الأيدولوجية فعلى حياته وعلى استقراره .. فالسير الإسرائيلية تتحدث عن فلسطين كأنها أرض بلا شعب فعلا .. وتجعل الصراع الذي حدث في فلسطين صراعا بينهم هم وبين المستعمرين البريطانيين (!) كأن بريطانيا لم تمنحهم وعد بلفور ولا حكمت فلسطين بموجب صك الانتداب الذي كتبت على نفسها فيه أن تضع فلسطين في أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية تسهل قيام وطن قومي لليهود في فلسطين .

الله أكبر .. ولكن الشهيد حسام ادْوَيَّاتْ لم يكن بالضرورة مطلعا على ذلك التاريخ ولا قارئا كتبه المرة . لقد كان عاملا شابا من حي في القدس يدعى صور باهر . أي أنه يشاهد ويسمع ما يحدث في القدس .. وفي المسجد الأقصى ..

يرى كيف أن سلطة الاحتلال فتحت فمها لابتلاع أرض القدس وبنت وأسكنت فوق أرض القدس كل قادم من أصقاع العالم : من الغرب ومن الشرق .. من روسيا ومن أمريكا .. من بولندا ومن هولندا .. من آسيا ومن أفريقيا ومن أوروبا ومن أستراليا ومن أمريكا .. وعملت هدما وهضما في خشش وفي عشش الفلسطينيين أهل البلاد وأصحابها . ورأى الشهيد حسام كيف قطعت أوصال القدس ، وكيف حرمت من أبنائها في القرى المجاورة الذين منعوا من العمل في عاصمة فلسطين ومنعوا من الوصول للصلاة في

الأقصى .. ثالث أقدس مكان عند المسلمين .. ورأى كيف يمضي الاستيطان قدما بالتدريج وكيف يستولي المستوطنون اليوم على ما لم يستولوا عليه بالأمس .. وسمع وربما يكون قد رأى كيف أن سائقي الجرافات الإسرائيلية الضخمة من ماركة كاتر بيللر المكلفين بتجريف المناطق والأحياء الفلسطينية يداهمون في الليل بيوتا آهلة بسكانها النيام ولا يبالون حتى بإنذار أصحابها قبل أن يشرعوا في تقويض حوائطها وهدمها عن آخرها .. ورأى كيف أن العمل الوحيد المتاح لأمثاله هو أن يكون عاملا في إعمار بيوت لهؤلاء الغرباء الذين أخرجوا غيره وسيخرجونه في الغد من أرضه ومن بيته .. ورأى كيف سحبت إسرائيل الهويات من أعداد متزايدة من أهالي القدس لكي تبعدهم إبعادا لئيما في صمت وسكون وراء حدود فلسطين .

نعم .. رأى حسام ذلك وأكثر من ذلك . وتعكر دمه على مدى الأيام التي كان يرى فيها ويسمع ويختزن عن غير قصد . وهكذا .. هكذا .. في الليل والنهار .. في الذهاب والإياب .. سما في البدن .. وسما في الروح .. ولم يقتنع حسام بأن ما يحصل عليه حملة هويات القدس . وهو وأهله بينهم . من فتات موائد الإنفاق الحكومي الإسرائيلي يستحق العيش من أجل المحافظة عليه لمجرد أنه يجعله في حال أفضل من حال الفلسطينيين المحسوبين على الضفة الغربية .

كان سم الظلم والهضم في الماضي والحاضر وفي الأمس القريب واليوم الراهن يضيق على حسام مذاهب العيش . فلم يجد عزاء في شيء مما يتمتع به شاب في مثل عمره ، سواء أكان طعاما أو شرابا أو نزهة أو مالا أو بنين .. ومع تغلغل هذا السم في بدنه تنامى لديه الشعور بأن هذه الحياة لا تستحق أن تعاش !

وهكذا .. في لحظة من اللحظات التي لا ندري كيف تفاعل فيها السم . ولا ندري هل كانت لحظة محددة بتصميم سابق شجعه عليه وجود " سلاح العملية " تحت يده .. أم جاءت اللحظة انفعاليا نتيجة إهانة لحقت به أو بعزيز من أعزائه أو خبر جارح إلى درجة التفجير ففاع السم في دمه وركب تلك الجرافة ونزل إلى شارع يافا ليَقْتُلَ ولِيُقْتَلَ ولينتقم من عدو لا ينفك يغيظه ويكيد له ولشعبه وينهب في كل يوم جديدا ويلوث في كل يوم معلما مقدسا فلسطينيا .

تذكروا علاء أبو علبة

وقبل حوالي سبع سنوات نفذ شاب اسمه علاء أبو علبة عملية ضد جنود جيش العدو الذين كانوا يقفون عند موقف باصات قرب بلدة يازور . وكانت عملية علاء تحمل أكثر من وجه شبه واحد مع عملية حسام . فكلاهما شاب في ثلاثيناته . وقد استخدم علاء أبو علبة سيارة باص تابعة لشركة إيجد الإسرائيلية فداهم بها الجنود ودهسهم تحت عجلات الباص . (فهل كان حسام معجبا بعلاء ومستوحيا عمليته القديمة أم أنه لم يسمع به ولكن كان توارد خواطر ؟) . وآنذاك كان الإسرائيليون شبه متأكدين أن علاء لم يفعلها بإرادة أحد غير نفسه وأنه غير تابع لأي فصيل وأنه نظيف أمنيا حسب معاييرهم .. تماما كحسام الذي يعيش في القدس تحت أنظار المخابرات الإسرائيلية وهي عالمة أنه ليس من رجال الفصائل المسلحة . فلو كان معه سلاح لقاوم قاتليه على أقل تقدير ! ومن أوجه الشبه الأخرى أن علاء متزوج وله خمسة أطفال وكذا حسام متزوج وله طفلان.

لا نستطيع أن نحزن أو نأسى حتى من أجل أطفال علاء وأطفال حسام . هؤلاء الذين سيحرمون من حنان آبائهم . فمن قال إن النبي الذي عاش يتيما لم يكن أعظم ممن آباؤهم عندهم ؟

الشيء الذي لا ينفك يخطر بالبال ويعود ليلح على البال هو استمرار الصحافة الإسرائيلية ورجال التحري الإسرائيليين في البحث والتنقيب عن خلفيات حسام العقيدية والتنظيمية وعن علاقاته الأسرية والاجتماعية . وتعمد هؤلاء وأولئك أن يتساءلوا كيف يحدث من زاوية نظرهم أن فلسطينيا يعيش في (نعيم) الإسرائيليين يحمله (اللؤم) و (فساد الطبع) على عض اليد الإسرائيلية السخية التي امتدت إليه بالإحسان !

هذا هو عمى الإسرائيليين الذين هم أكثر البشر في العالم نرجسية وتكبرا فلا يبصرون الأذى الذي أوقعوه بالآخرين . ويظنون أن ضحاياهم يجب أن يكونوا شاكرين للفرصة التي جعلتهم ضحايا شعب الله المختار !!

وعلى قدر نرجسيتهم تأتي وحشيتهم التلمودية . فقد مضى عليهم الآن أكثر من أربعين سنة وهم ينسفون بيوت أسر الفدائيين الفلسطينيين ويعاملون أهاليهم الذين لا دخل لهم بالقسوة كلها ، حتى الأم التي تذهب لزيارة ولدها السجين . ولم يكن لذلك كله أثر في منع العمل الفدائي ولا التخفيف من إقبال الشباب الفلسطينيين عليه .

فهل هو شيء غير الجبن والتشفي يحمل نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي حاييم رامون على المناداة بإخراج صور باهر من القدس ومصادرة هويات أهلها ، ثم يحمل وزير الحرب إيهود باراك على الإيعاز بنسف بيت كل من منفذ عملية المعهد الديني ومنفذ عملية الجرافة حسام . فما أجبن هذا وما أحط ذاك ! وما أبعدهم عن الإنسانية وعن حقوق الإنسان .

لم تعجبنا صورة الرئيس !

نحن متقيدون حتى الآن بإبقاء مسافة من الاحترام ومراعاة مركز الرئاسة حين نذكر الرئيس محمود عباس .

ولكننا لم نحب أبدا تلك الصورة والمشهد الذي يتضمن المصافحة بين وزير حرب العدو إيهود باراك وبين رئيس جمهورية العراق جلال الطالباني وبينهما في صدر الصورة الرئيس الفلسطيني محمود عباس مبتسما من الأذن إلى الأذن . فتلك الصورة أخجلتنا إذ قيل خاصة إن الرئيس عباس هو الذي سعى لجمع الرئيس العراقي والجنرال الإسرائيلي في مصافحة ولقاء يكون الرئيس الفلسطيني عرابه .

إننا غاضبون .. ونحس بالخزي لأن الرئيس الذي يحمل هذه الصفة التي تخص كل فلسطيني قد أوكل إلى نفسه القيام بمهمة من هذا الطراز . ونحن لا ندري ماذا يقول عنا النواب العراقيون الذين طالبوا الرئيس طالباني من ناحيتهم بالاعتذار عن هذه المصافحة .. ولن نزيد . ولكنه شيء يفقع المرارة .

وبعد هذا كله : من الذي قال إن طالباني لم يصافح باراك ألف مصافحة سرية من قبل ؟!

ورحم الله الرئيس ياسر عرفات الذي تحدث أكثر من مرة عن أن طالباني (استضاف) في المناطق الخاضعة له في كردستان فيلقا كاملا من الجيش الإسرائيلي !

أسخف نكتة

الرئيس بوش أصدر قرارا بشطب مانديلا من قائمة الإرهاب . ودقي يا مزيكة ..

ونكمل من عندنا : وقيل لمانديلا هل تشطب أنت بوش من قائمة الإرهاب ؟ فأجاب على الفور : لو فعلت لصرت بالفعل إرهابيا !!